

مفهوم المصطلحات المحورية في التحليل السيميائي للخطاب الشعري عند عبد الملك مرتاض

(من خلال كتبه: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، نظرية القراءة)

أنسرين بن الشيخ
جامعة: قاصدي مرباح ورقلة - الجزائر

الملخص:

تعتبر الدراسة المصطلحية من أهم الدراسات خاصة بعد ما شاب الخطاب النقدي العربي المعاصر من أزمة مصطلحية نتيجة عوامل كثيرة، جاء هذا المقال محاولين فيه تعرية الجهاز الإجرائي الذي يكرسه عبد الملك مرتاض في قراءاته التحليلية للنص الشعري، محددين مفاهيم هذه المصطلحات التي تعتبر أساسية في تحليل الخطاب الشعري في كل كتب مرتاض المتأخرة، واضعين اليد قدر المستطاع على الجديد الذي قدمه عبد الملك مرتاض للتحليل السيميائي للنص الشعري من خلال إضافاته وتوسيعه لمفاهيم سيميائية عدة.

الكلمات المفتاحية: التشاكل، التباين، الأيقونة، القرينة، التأويل، سيمياء.

Abstract

The study is the TERMINOLOGICAL INEXACTITUDES of the most important studies, especially after the speech of critic Arab cash of terminological crisis as a result of many factors, this article trying to expose the procedural device is devoted to abdelmalek mortad in analytical solutions mortad roaming service poetic text, the specific concepts of these terms which are essential in the analysis of the poetic discourse in all the books of mortad arrears, placing the hand as much as possible on the new submitted by Abdul Malik of semiotic analyse poetic text through his additions and expansions of the concepts of semiotic analyse.

Key words: isotopy; heterotopie; icone; indice; hermeneutique; semiotic

Resume

L'étude est l'inexactitudes terminologiques des études les plus importantes, surtout après le discours de critique arabe crise terminologiques en raison de nombreux causes, cet article essaie d'exposer la procédure est consacrée à abdelmalek mortad mortad solutions analytiques dans le service d'itinérance texte poétique, les concepts spécifiques de ces termes qui sont essentielles dans l'analyse de la poétique discours dans tous les livres de mortad arriérés, plaçant la main autant que possible sur le nouveau soumis par Abdul Malik de la sémiotique analyser texte poétique par ses ajouts et extensions des concepts de l'analyse sémiotique

Mot cles : isotopie ; heterotopie ; icône ; indice ; hermeneutique ; simiotique

إن المصطلحات التي حاولنا الإلمام بمفاهيمها. هي المصطلحات السيميائية الأكثر حضورا واستعمالا لدى عبد الملك مرتاض في تحليله للخطاب الشعري. والتي تعتبر قاعدة أساسية لطالما انطلق منها مرتاض في قراءة النص الأدبي على اختلاف طبيعته في كل كتبه. والجدير بالذكر والتنبيه أننا في دراستنا المصطلحية هذه لم نراع ترتيبا أبجديا ولا ألفبائيا، بل كان الترتيب حسب درجة الاستعمال ونسبة الاعتماد من قبل عبد الملك مرتاض على كل مصطلح. وكذلك مدى توافق المصطلحات في ورودها مع بعضها البعض كالتشاكل مع التباين، والانتشار مع الانحصار وغيرها.

ونريد بالمحورية كل مصطلح شكّل مرتكزا في تحليل مرتاض للنص الأدبي. والجدير بالذكر أن المصطلحات التي تم انتقاؤها هي مصطلحات كان لها حضور مركزي في كتب مرتاض التي خصصها لتحليل النصوص الأدبية على اختلافها من قبيل: نظام الخطاب القرآني، التحليل السيميائي للخطاب السردى، شعرية القصيدة قصيدة القراءة، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل (تحليل لقصيدة قمر شيراز لعبد الوهاب البياتي)، النص والنص الغائب (تحليل قصيدة كن صديقي لسعاد الصباح)، بنية اللغة في الشعر النبطي (تحليل قصيدة نبطية للشيخ محمد بن زايد).

المصطلحات المحورية في التحليل السيميائي للخطاب الشعري عند مرتاض:

1. مصطلح: التشاكل

1.1 الدراسة اللغوية:

يذكر احمد بن فار في مقاييس اللغة من باب (ش ك ل) ¹

شكل: الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة. وتقول هذا شَكْلُ هذا، أي مثله. ومن ذلك يقال أمر مُشَكِّل كما يقال أمر مُشْتَبِه، أي هذا شابه هذا، وهذا دخل في شكل هذا، ثم يحمل على ذلك فيقال: شَكَلْتُ الدابة بِشَكَالِهِ، وذلك أنه يجمع بين إحدى قوائمه. وكذلك دَبَّ بها شِكَالٌ إذا كان أحد يديه وإحدى رجليه محجلاً، وهو ذاك القياس.

ومن الباب الشكلة وهي الحمرة يخالطها بياض، وعين شكلاء إذا كان في بياضها حمرة يسيرة. قال ابن دريد: ويسمى ذلك أشكل للحمرة والبياض المختلطين منه؛ وهذا صحيح، وهو من الباب الذي ذكرناه في إشكال هذا الأمر وهو التباسه؛ لأنها حمرة لابسها بياض. قال الكسائي: أشكل النخل إذا طاب رطبه وأدرك، وهذا أيضا من الباب، لأنه قد شاكل التمر في حلاوته ورطوبته وحموته. فالظاهر أن مادة (شكل) تنجح نحو معنى تماثل وتوافق واشتراك أمرين في صفة أو وجه ما.

فالمتمتع للدراسة اللغوية لمادة (شكل) يلاحظ اجتماع دلالة المادة على معاني متداخلة: المماثلة؛ المشابهة؛ الموافقة؛ المصاحبة، أي اجتماع أمرين واشتراكهما في شيء واحد على الأقل. ولو ركزنا قليلا على الوزن الصرفي لمصطلح التشاكل نجده يؤكد الدلالة المعجمية للمادة فقد جاء على وزن (تفاعل) الدال على «المشاركة بين اثنين أو أكثر»²

1.2 الدراسة المفهومية:

يعد مصطلح التشاكل من المصطلحات المركزية في التنظير السيميائي عند الباحث عبد الملك مرتاض، وكذا التطبيقي في تحليله للعديد من النصوص الأدبية تحديدا النصوص الشعرية. فلا تخلو تحليلاته من التشاكل كإجراء يرى فيه مرتاض قدرة كبيرة على تعرية النص وسبر أغواره

والوقوف على جمالياته الفنية. وقد وسّع مرتاض من دور التشاكل في قراءاته للنصوص الأدبية (الخطاب الشعري) فلا ينفك مرتاض في معظم الكتب التي خصها للتحليل السيميائي من تطبيق إجراء التشاكل على النص المراد تحليله. والتشاكل كإجراء نقدي يعمل مرتاض في الخطاب الشعري أكثر من تواجده في تحليله للخطاب السردى على الرغم من أن استعمال التشاكل كمصطلح سيميائي في بداياته كان -من قبل "غريماس"- في الخطاب السردى إلا أن الأمر يختلف بالنسبة للباحث عبد الملك مرتاض فهو يعمل في الشعر أكثر من السرد. فالمصطلح يعتبر مصطلحا محوريا في التحليل السيميائي للخطاب الشعري.

و التشاكل في مفهوم مرتاض له هو: « كل ما استوى من المقومات الظاهرة المعنى والباطنة والمتجسدة في التعبير أو الصياغة الواردة في نسج الكلام: متشابهة أو متماثلة أو متقاربة على نحو ما مورفولوجيا أو نحويا أو إيقاعيا أو تراكيبيا أو معنويا عبر شبكة من الاستبدالات والتباينات بحكم علاقة سياقية تحدد موقع الدلالة »³

ويورد عبد الملك مرتاض في موضع آخر من كتابه " نظرية القراءة " تعريفا لا يبتعد عن هذا التعريف يقول: « هو تبادل العلاقات الشكلية بين طرفين اثنين، أو جملة أطراف غير أنا نحن نزيد التوسع في هذا التبادل القائم على التماس التماثل الشكلي بحيث يمتد إلى كل الخصائص المورفولوجية والنحوية والإيقاعية والمعنوية فتلك هي حدود هذا المفهوم لدينا »⁴

فكما نلاحظ في التعريف الأول أن هناك ترابطا وثيقا بين الدلالة اللغوية والمفهومية للتشاكل حيث تضمن المعنى اللغوي دلالة التشابه، والتماثل، والتوافق. فإن مفهوم التشاكل اصطلاحيا يقوم على تماثل المقومات المعنوية بشكل ما أو بوجهة ما (نحويا؛ إيقاعيا؛ معنويا...) كما أشار مرتاض في تعريفه لمصطلح التشاكل. فيقيم مرتاض تحليله للخطاب الشعري على هذا المنوال متبعا كل المقومات المعنوية التي قد تتماثل أو تتلاءم أو تتشابه في وجه ما، ومن ذلك قراءته لقول بدر شاكر السياب في قصيدة: "شانشيل ابنة الجلبي"⁵

يصيدون الأرانب والفراش وأحمد الناطور

نحدّق في ظلال الجوسق السمرء في النهر

ونرفع للسحاب عيوننا: سيسيل بالقطر

وَأرعدت السماء فرناً قاع النهر وارتعشت ذرى السعف

« هناك تشاكل نحوي يتجسد في اصطناع "نحن" في بدايتي الوحدتين الثانية والثالثة :
نحدّق؛ نرفع »⁶

ويؤكد مرتاض على نقله لمفهوم التشاكل كأداة إجرائية من المستوى الشكلي إلى توسيعها لتتعداه إلى التماس التماثل على جميع المستويات بين المقومات في قوله السابق الذكر: « نحن نريد التوسع في هذا التبادل القائم على التماس التماثل الشكلي بحيث يمتد إلى كل الخصائص المورفولوجية والنحوية والإيقاعية والمعنوية فتلك هي حدود المفهوم لدينا »⁷

ويشير مرتاض على حصره لاستعمال التشاكل على الخطاب الشعري، إلا أنه لا يتحرّج من توظيفه في تحليل نصوص سردية : كأحاديث البلغاء، والخطب، والمقامات، والرسائل. وإجراء التشاكل عند مرتاض يتم وفق خطوات محددة حيث يتصدى للنص بتفكيكه إلى أجزاء أو ما يسميه هو وحدات أو لوحات شعرية، ليشرع في تحليل كل وحدة على حدى واضعاً نصب عينيه معياراً ألا وهو استظهار والتماس ما بين هذه الوحدات من عناصر ومقومات قد تتماثل في وجهة ما. وهذا الاستظهار للعلاقات بين المقومات زاد من توسيع مفهوم ووظيفة التشاكل كإجراء نقدي.

ويعطي عبد الملك مرتاض قدرة عجيبة لإجراء التشاكل في مقارنة وتحليل النص الأدبي « والمقاربة التشاكلية من منظورها إجراء قادر على أن يغطي النص بالقراءة الأدبية دون أن يذر فيها شيئاً كامناً إلا نبشه، ولا شيئاً خفياً إلا أظهره، ولا شيئاً متوارياً إلا كشفه ذلك بأن قدرتها على الانصراف إلى فك الرمز اللغوي وتفسير المعنى الكامن فيه وتحليل النسج المبعوث بين ثناياه: هي خصائص قد تجعلها عالية القدرة على تناول قراءة النص الأدبي والذهاب فيه إلى أبعد عطاءاته الممكنة »⁸

وقد يتنوع التشاكل طبقاً لنوع وجه التماثل بين المقومات المعنوية، فقد يكون نحويًا، أو مورفولوجيًا، أو إيقاعيًا، أو غير ذلك ولاحظنا في تحليلات مرتاض تتبعه لشتى أنواع هذه التشاكلات منها:

-التشاكل المعنوي: في قراءة مرتاض للوحة الشعرية الثانية من نص " شناسيل ابنة الجليبي " للسيااب يقول فيها:

(ليلي أو نهاري أثقلت أغصانه النشوى عيون الحور
وكنا جدنا الهدار يضحك أو يغني في ظلال الجوسق القصب
وفلاحيه ينتظرون: غيثك يا إله وإخوتي في غابة اللعب)

يقرأ مرتاض هذه اللوحة متبعا ما فيها من تشاكلات « وفي الوجدتين الأولى والثانية من اللوحة الشعرية الثانية تشاكل معنوي بحكم طبيعة العلاقة، ويمثل في " أغصانه-ظلال " حيث إن للأغصان ظلالا وارفة على الرغم من أنها تنضاف إلى الجوسق أي القصر»⁹

-التشاكل المورفولوجي: وفي اللوحة الشعرية نفسها يضيف مرتاض « وهناك تشاكل مورفولوجي يتمثل في وجود فعلين اثنين ماضيين "أثقلت - كُنا" مقابل أفعال ثلاثة دالة على الحاضر " يضحك- يغني - ينتظرون "»¹⁰

-التشاكل الإيقاعي: حيث يقرأ مرتاض قول أبي القاسم الشابي من قصيدته "قلب الشاعر"

كل ما هبّ وما دبّ وما
نام أو حام على هذا الوجود

تحديدا السمتين اللفظيتين: " ما نام / أو حام " « يتجسّد في هذين الزوجين الاثنين المركبين تشاكل يتمخض للمستوى الإيقاعي. (..) إذ الاتفاق في الشكل المورفولوجي ينشأ عنه بالضرورة اتفاق في الإيقاع في كل الأطوار»¹¹

ومما استحدثه مرتاض في إجراء التشاكل هو تسليطه للتشاكل على كل مستويات النص الأدبي كالزمن والحيز والإيقاع وغيرها من مستويات النص الأدبي. فيحلل عبد الملك مرتاض من قصيدة الشابي نفسها "قلب الشاعر" لقوله

من طيور وزهور وشذى وينايع وأغصان تميد
وبحار وكهوف وذرى وبراكين ووديان وبيد

« وتتشاكل الينايع مع البراكين تشاكلا حيزيا صريحا وذلك على الرغم من الاختلاف الذي يضرب تفاصيل كل حيز فيهما»¹²

إذا عدنا بالتشاكل إلى أول استعمال له في مجال السيمياء والذي لم يسبق للسانياتي الفرنسي (جوليان ألجيرادس غريماس) إليه، أحد فهو أول من استعار واستحدث إجراء التشاكل في الحقل السيميائي. ويعرّف (غريماس) التشاكل بأنه: « مجموعة مترابطة من المقولات المعنوية (أي المقومات) التي تجعل قراءة متشاكلة للحكاية، كما نتجت عن قراءات جزئية للأقوال بعد حلّ إبهامها، هذا الحل نفسه موجه بالبحث عن القراءة المنسجمة »¹³

وأول ما عابه مرتاض والكثير من النقاد الغرب والعرب هو تضيق غريماس لمفهوم التشاكل، بل ينعته مرتاض بالاضطراب وأنه « مفتقر إلى بلورة تنضّره وصقلة مفهومية تصقله»¹⁴

غير أن هذا التضيق لم يدم عند تلاميذ غريماس فنجد (فرانسوا راستي) يوسع من مفهوم التشاكل باعتباره هذا الأخير « كل تكرار لوحدة لغوية مهما كانت »¹⁵ وتوسيع راستي جاء بعد دراسته لقصيدة شعرية. لتتوالى جهود كثيرة لتوسيع مفهوم التشاكل ويقف مرتاض أمام إجراء التشاكل معجبا متيقنا من قدرته الإجرائية، وفي الوقت نفسه معاتبا النقاد الغربيين على تضيق مفهوم وإجراء التشاكل، متوقفا عند المحدودية التي وسمت جهود (غريماس) خصوصا وجهود تلاميذه من "مدرسة باريس" من بعده بوجه أقل. حيث يرفع مرتاض التحدي بتوسيع مفهوم التشاكل مؤكدا على أن القراءة التشاكلية بالنسبة له « عالم آخر غير عالم غريماس المحدود تتجلى فيه قابلية النص الأدبي لعطاء غير محدود ولسخاء غير محدود».¹⁶

فيختلف مرتاض في رؤيته لإجراء التشاكل عن أول من استحدثه (Greimas) فبعد الملك مرتاض يراها أداة خصبة سخية تفتح النص على عدد لانهائي وغير محدود من القراءات والدلالات من خلال تعالق المقومات المتجاورة وتمثالها « وكيف تتشاكل تحت زوايا لغوية وإيقاعية ونسجية وجمالية مختلفة »¹⁷

ومما أضافه مرتاض لتوسيع مفهوم التشاكل هو طبيعة هذه الأداة الإجرائية التي تقتضي منه دوما تفكيك النص الأدبي إلى وحدات مما يعطي للتشاكل إمكانية التوغل في شبكة الكلام وتحديد الدلالات مما يذهب بالعلاقة التأويلية إلى أبعد الحدود، وبالقراءة إلى أعماق النص والتماس رسالته الأدبية لأن التشاكل في اعتبارات عبد الملك مرتاض إجراء قادر على تعرية النص الأدبي « ذلك بأن قدرتها على الانصراف إلى فك الرمز اللغوي وتفسير المعنى الكامن فيه وتحليل النسيج المبتوث بين ثناياه: هي خصائص قد تجعلها عالية القدرة على تناول قراءة النص الأدبي»¹⁸

بات من الواضح جدا التوسيع الذي أضافه مرتاض للتشاكل كأداة إجرائية نتيجة إعطاء سلطة للتشاكل كإجراء نقدي على الكلام، ضف إلى هذا تسليطه للتشاكل في النص الأدبي سطحا وعمقا. فجعل للتشاكل سلطة على الزمن واللغة والحيز مما زاد من قدرة هذا الإجراء على سبر أغوار النص الأدبي.

لقد تصدّى عبد الملك مرتاض لإجراء التشاكل السيميائي بجدارة تنظيرا وتطبيقا. وكان من النقد العرب البارزين الذين حاولوا بشكل حثيث إيجاد أرضية للإجراء التشاكي في النقد السيميائي العربي المعاصر. ولم تتوقف جهوده عند حدّ تكريسه للقراءة التشاكية وإعمالها في النصوص الأدبية، ولا عند حدّ توسيعه وتسليطه للتشاكل على مستويات النص الأخرى كالزمن والحيز وغيرها، ولا عند ما استحدثه من خلال طول ممارسته للقراءة التشاكية ألا وهي ثنائية الانتشار والانحصار. بل حاول عبد الملك مرتاض إعطاء خلفية بلاغية تراثية لمصطلح التشاكل من خلال ربطه بمفاهيم بلاغية من قبيل المشاكلة والمقابلة ومراعاة النظر والجناح... إلخ.

2. مصطلح: التباين

2.1 الدراسة اللغوية:

يورد ابن فارس في مقاييس اللغة في باب (بين) « الباء والياء والنون أصل واحد وهو بعد الشيء وانكشافه فالْبَيْنُ الفراق، ويقال بان يبين بينا وبينونة والبيون: البئر البعيدة القعر، والْبَيْن: قطعة من الأرض قدر مدّ البصر»¹⁹

2.2 الدراسة المفهومية:

يرد مصطلح التباين كقابل لمصطلح التشاكل السابق عند عبد الملك مرتاض. ففي كل كتبه التي نظّر أو طبّق وحلّل فيها نصوصاً أدبية، إلا وترافق واقترن الإجراءات ببعض البعض وذلك لاعتبار مرتاض « أن كل نص أدبي يشتمل على مجموعة من العناصر الأدبية أو " السمات" تجعل من سماته اللفظية ترتبط بعضها ببعض، إما على سبيل التشاكل وهو الأغلب، وإما على سبيل التباين أو الاختلاف الذي يسهم في تأسيس الدلالة»²⁰

والملاحظ من خلال طول مدارستنا وقراءتنا لكتب عبد الملك مرتاض، أن الخطاب الأدبي في نظر مرتاض ينجح للتشاكل أكثر منه إلى التباين ويبرر هذا بأنه « شأن يمثل في سيرة الحياة نفسها إذ على ما يميز الناس من تباين وتباعد بينهم من تنافر فإن التشاكل يظل أكثر وروداً في علاقاتهم بعضهم ببعض»²¹

وعلى الرغم من ميل مرتاض إلى التشاكل كإجراء إلا أن التباين كان فارضاً نفسه كلما وجد تعارض لسمات لفظية ما. ويتطلّع مرتاض لإعطاء التباين المكانة ذاتها كإجراء في قراءة وتحليل النصوص الأدبية كما التشاكل لأنه يكشف عن مقدار الاختلاف الواقع بين علاقات السمات اللفظية لتحديد دلالتها. يشير مرتاض إلى المقابل اللاتيني لمصطلح التباين (Heterotopie) « وهذا المصطلح منحوت من لفظين اغريقيين هما (Heteros) ومعناه " غير " أو "آخر" و(Topos) ومعناه مكان. ولنا بعد ما أعدنا المصطلح إلى أصوله الإغريقية التي انحدر منها أن نترجمه بـ "التباين" كما نترجمه بالاختلاف، كما يمكن أن نستعمله تحت المصطلح التراثي (....) وهو التقابل»²²

والأمر الذي يؤكد مرتاض أن التباين سمة مقترنة بكل الأحوال قد تكون عفوية اعتباطية أو موظفة قصدياً في أحوال أخرى وأنه « مفهوم سيميائي يقوم على إدراك العلاقة الدلالية بين الموضوع والمحمول»²³

فالتباين حسب مرتاض ينتج عن تفاعل بين سمتين أو أكثر على سبيل التقابل والاختلاف، وعلى التأليف بين أطراف متناقضة، فالتباين مقابل للتشاكل يرصد كل العلاقات المتنافرة

والمتناقضة وبذلك يتم تحديد دلالات هذه السمات المتعاقبة. ومصطلح التباين لدى عبد الملك مرتاض يترادف مع مصطلحات أخرى لها الدلالة نفسها من بينها: التقابل، الالتشاكل. ومن بين التباينات التي قرأها مرتاض في قصيدة "شناشيل ابنة الجلي" للشاعر العراقي بدر شاكر السياب تحديدا في اللوحة السادسة من القصيدة التي يقول فيها:

تأجُ ولیدك الأنوار لا الذهب
سُیُصلب منه حی الآخرین، سیبریئ الأعمی
ویبعثُ من قرار القبر میتا هدّه التعب
من السفر الطویل إلى ظلام الموت یکسو عظمه اللحم
ویوقد قلبه الثلجی فهو بحبّه یثبُ

يحلل مرتاض هذه اللوحة الشعرية التي وصف فيها السياب السيد المسيح عليه السلام، واقفا على تشاكلاتها وتبايناتها. وتحديدا قوله "ويبعث ميتا" « هناك هنا أيضا حالان مختلفان أو متباينتان: إحداهما تستميز بالنشر والقدرة على إخراج شيء كان ميتا أو كامنا وإحداهما الأخرى تتميز بالانقباض والانحصار والفناء والتلاشي إحداهما تمثل في حقيقة الأمر ديب الحياة بكل ما في هذا الديب من دفء وحلم وجمال وإحداهما الأخرى تجسّد الشلل والممات بكل ما ينشأ عن هذا الموت من حزن وشقاء»²⁴ وكما تنوعت أوجه التشاكل وفقا لطبيعة العلاقات التي تربط بين السمات المتشاكلّة، فانقسم التشاكل إلى معنوي؛ ونحوي؛ ومورفولوجي؛ وغيرها الأمر ذاته بالنسبة للتباين فقد تختلف المقومات وتتناقض أو السمات اللفظية من جهة المعنى أو المورفولوجيا أو النحو أو غيرها:

-التباين المعنوي: في قراءته للمقومات التالية من قصيدة "شناشيل ابنة الجلي" (أثقلت / كلاً) و (نضحك / يغني / ينتظرون) يقول مرتاض: « التباين المعنوي يمثل في الماضي والحاضر معا»²⁵

-التباين النحوي:

في قراءته للوحة الشعرية الأخيرة من نص "السياب" يرى مرتاض أن هذه اللوحة الشعرية الأسماء بها «هي الأطغى حيث تبلغ ثمانية عشر اسما مقابل تسعة أفعال فحسب. فالأسماء بالقياس إلى الأفعال تجسّد ضعفها في حين أن الأفعال بالقياس إلى الأسماء تمثل نصفها وفي ذلك تباين نحوي»²⁶

إن التباين كمفهوم سيميائي لدى مرتاض مقترن بمفهوم التشاكل بل يخدم كل منهما الآخر لأن «التباين (...) يمنح التشاكل دلالة ويمكن له في التبنك وتبؤى المكانة التي هو بها قين»²⁷

ومفهوم عبد الملك مرتاض للتباين السيميائي لا يختلف مع ما ذهب إليه النقاد العرب المعاصرين باعتباره قائم أساسا على تعارض وتناقض العلاقة بين السمات اللفظية، ونجد نفس الرؤية لدى الناقد محمد مفتاح الذي يعتبر من أكثر النقاد ممارسة لإجرائي التشاكل والتباين.

ويعرف مفتاح هذا المصطلح السيميائي بأنه «أحد المكونات الأساسية لكل ظاهرة إنسانية ومنها اللغوية وقد يكون مختفيا لا يرى إلا وراء حجاب وقد يكون واضحا كل الوضوح حينما يكون هناك صراع وتوتر بين طرفين أو أطراف متعددة ولكن لا يخلو منه أي وجود إنساني»²⁸

وعموما فالملاحظ اتفاق مرتاض ومفتاح في جملة من النقاط من أهمها:

-أن التشاكل والتباين سمتان في الحياة تقتربان بكل موجود في الكون.

-أن التباين يجمع بين طرفين أو أكثر في رابط التناقض، وقد يكون التناقض ظاهرا أو مخفيا قد يخدع القارئ بعدم وجوده.

إن التباين كمفهوم سيميائي غربي لم يثن مرتاض عن إدخاله في دائرة تأصيله للمفاهيم البلاغية التراثية، خاصة ما يخص علم البديع الذي يضم مفاهيم على غرار مفهوم التباين من قبيل- (الطباق/ المقابلة/ التضاد...) فيرى مرتاض أن مفهوم التباين ورد «تحت تصنيفات مختلفة وبمصطلحات بلاغية كثيرة»²⁹

وقبل أن ننفض اليد من تحديد مفهوم مصطلح التباين وجب الوقوف على جملة من النقاط التي تخص التشاكل والتباين والتي تؤديها القراءة التشاكية - التباينية في النص:

- ثراء دلالات النص وانفتاحية القراءة وتعدديتها.

- توسيع مفهوم التشاكل من وجوده من على مستوى الشكل إلى مستوى المعنى والمضمون.

- إثراء مفهوم التشاكل والتباين من خلال اقترانها بقضايا أخرى مثل: الانتشار، الانحصار، التلازم...إلخ.

- تخصيص إجراء التشاكل والتباين من خلال اعتماد مرتاض على أداة التأويل.

- رفض مرتاض آراء شيخ السيميائيين الفرنسيين "غريماس" حول القراءة التشاكية التي اتهمه مرتاض ومن قبله السيميائيون الغرب بتضييقها. مناديا-مرتاض- بتعددية القراءة وانفتاحية النص على دلالات مختلفة وجديدة.

- تعميم مرتاض إجراءي التشاكل والتباين على جميع مستويات النص الأدبي (الزمن، الحيز، الإيقاع...إلخ)

- محاولات مرتاض الحثيثة التأصيل لذين المفهومين من التراث البلاغي العربي بمطابقة المفهومين بمفاهيم المماثلة؛ والمقابلة؛ والطباق؛ واللف والنشر؛ وغيرها.

3. مصطلح الانتشار

1.3 الدراسة اللغوية:

يورد ابن فارس في مقاييس اللغة في مادة (نشر) « النون والشين والراء أصل صحيح يدل على فتح الشيء وتشعبه، ونشرت الخشبة بالمنشار نشرا، ومنه نشرت الكتاب خلاف طويته»³⁰

2.3 الدراسة المفهومية:

يرى مرتاض أن سمة الانتشار والانبساط والامتداد صفة تلازم كل الموجودات وأنها «سيرة من سير الحياة المعروفة التي تميل في معظم مظاهرها إلى هذا السلوك. فالأجسام تنتشر في الفضاء؛ فتستحيل من الطفولة إلى الشباب، ومن القصر إلى الطول، ومن الغضاضة إلى الاشتداد،

ومن الضّالة إلى الضخامة، والحياة الطبيعية نفسها تتجدّد كل موسم حين تجودها الأمطار فيربو الشجر، وينمو الزرع، وينجم النبت....»³¹

هذه هي رؤية مرتاض التي تقتضي بأن كل موجودات الحياة تميل للامتداد والانبساط والانفتاح. قد حلل وقرأ النصوص بوصفها سمات إما تميل للانتشار، أو إلى الانحصار.

يقرأ مرتاض السمتين اللفظيتين (بحار / ذرى) في قول أبي القاسم الشابي

وبحارٌ وكهوفٌ وذرى
وبراكينٌ ووديانٌ وبيد

« هناك تشاكل معنوي يتجسد في أن كلا منهما يشتمل على معنى ما نطلق عليه مصطلح الانتشار، إذ البحر طويل عريض، وعميق وسيع، وشاسع منتشر في كل متجه، على حين أن الذرى بحكم علوّها وإشرافها على تلال وسهول وروابٍ هي ذات قابلية لاتخاذ معنى الانتشارية»³²

والملاحظ على تحليل مرتاض هو ارتباط إجراء التشاكل بمفهوم الانتشار بل يعتبر من أهم القضايا التي قد تتماثل وفقها السمات اللفظية لتؤدي إلى التشاكل. ومن ذلك تحليله لقول السياب في نضه: "سناشيل ابنة الجلبي" (شتاء القرية النضّاخ) «نلاحظ أن مقوم "النضّاخ" هنا يظاھرنا على هذه القراءة التي ننظر إليها من زاوية الانتشارية حيث إن هذا المقوم يفضي إلى دلالة تنهض على وجود شيء لا يزال يسيل ويتسرّب ويتناقص. ولا يقال إلا نحو ذلك في مقوم "الشتاء" الذي هو ریح مدممة، ورعود مدوية (....) وفي هذه المعاني ما فيها من دلالات الانتشار»³³

فيلاحظ القارئ حرص مرتاض على تتبع جميع الدلالات التي يمكن أن تأوّل لها السمات اللفظية لكي تدل على معنى الانتشار.

ويعوّل مرتاض على هذه الثنائية القطبية (الانتشار/ الانحصار) في توسيع إجراء التشاكل من خلال اعتماد أداة التأويل - كما لاحظنا- الأمر الذي ساهم في تخصيص القراءة التشاكلية. بل يؤكد مرتاض على أهمية هذه الثنائية بحيث لا يمكن للقراءة التشاكلية للنص الأدبي أن تتم بمعزل عن ثنائية الانتشار والانحصار حيث «فتح هذا الكشف مجالا رحباً لإثراء مفهوم التشاكل والذهاب به في القراءة التأويلية إلى أبعد الحدود الممكنة»³⁴

مصطلح: الانحصار

1.4 الدراسة اللغوية:

يقول ابن فارس في مادة (حصر): « الحاء والصاد والراء أصل واحد وهو الجمع والحبس والمنع. ومن الباب الحر بالسر وهو الكتوم له، قال جرير:

ولقد تسقطني الوشاة فصادفوا حصرا بسرّك يا أميم ضنينا»³⁵

إذا دل الانحصار لغة على معاني متقاربة حد التطابق وهي الحبس والمنع والقطع والانقباض والضيق.

2.4 الدراسة المفهومية:

إذا كان الانتشار انفتاحا وامتدادا واتساعا، فالانحصار على الأغلب انقباض وانكماش وضيق يمضي مرتاض متبعا للنصوص من زاوية الانتشار والانحصار

ومن قراءاته من خلال زاوية الانحصار السطور الشعرية التالية من نص شناسيل للسيّاب (وطوّق / أتمكث في ظلال الجوسق المبتل / يدير في الغرفة) « فهذه المقومات تعني شيئا من كثيرا من معاني الانحصار، بل ربما الانحصار الشديد، إذ لم يكن التطويق إلا قبضا وإمساكا وحصرًا. كما أن المكث في الظلام والانتظار يعينان الانحصار في مكان ما، والتوقع فيه. ويمثل هذا ما نجده في قوله "يدير الغرفة" حيث إن إدارة شيء وتسييره أو ملاحظته، أو التعامل معه بشكل من الأشكال داخل غرفة محدودة الحيز يعني من كثير من الوجوه حصرا له وقبضا»³⁶

إذا كان الانتشار هو توافق السمات اللفظية في دلالتها على الانفتاح والامتداد، فالانحصار إذاً من خلال قراءتنا الكثيرة لكتب عبد الملك مرتاض وتحليله للنصوص يمكن القول أن الانحصار هو: اجتماع المقومات حول دلالة واحدة ألا وهي الانقباض والانقباض في حيز دلالي لا امتداد ولا انفتاح فيه.

إن المصطلحين (الانتشار/ الانحصار) لا يمكن الفصل بينهما فهما وجهان لثنائية واحدة. وعبد الملك مرتاض يولي الانتشار أهمية كبيرة في قراءة وتحليل النص الأدبي، فقد طوّعه مرتاض

ملك يمينه في القراءة التشاكلية مما أدى إلى تطويرها، وخلق خصوبة في تحليل التشاكلات وأنواع المقومات المتشاكلة .

بل لا يقف الأمر عن هذا الحد بل قد يتجاوزه إلى تأثير ثنائية (الانتشار والانحصار) في التشاكل والتباين، حيث قد يفضي بمقومات إلى التشاكل أو ينجح بها إلى التباين وذلك انطلاقاً من حاله تماثلها في دلالتها على الانفتاح والانتشار، أو تنافرها بين دلالة الانتشار والانحصار. إن استحداث مرتاض هذه الزاوية لقراءة النص الأدبي فتحت الباب واسعا أما القراءة التشاكلية باعتماد التأويل. والملاحظ أيضاً في هذه الثنائية هو ميل القراءة إلى الانتشار أكثر من الانحصار كما وسبق أن جنحت إلى التشاكل أكثر من التباين، وفسر مرتاض الأمر بأن الحياة وسيرة ما فيها من موجودات هي أقرب وأميل إلى التشاكل من التباين وإلى الانتشار من الانحصار.

ويؤكد مرتاض على أن هذه الثنائية ستفتح الباب واسعا أمام قراءة وتحليل النص الأدبي «فكان هذا الإجراء القائم على ثنائية الطي والنشر، أو الانتشار والانحصار وهو الذي نزع من مثله في كل كلام بشري على سبيل الإطلاق: جعلنا إذن نفتح بفضل الله بابا واسعا وامتطي طريقا لحبا للقراءة الأدبية التي تبادر ولا تغادر، وتكشف ولا تقف، وتطلع ولا تستطلع»³⁷

وفي هذا التصريح من مرتاض نلحس أمرين أولهما هو محاولته التأصيل لمفهوم الانتشار والانحصار بربطهما بمفاهيم بلاغية عربية وهي (الطي والنشر) والأمر الثاني هو اعتبار مرتاض هذه الثنائية كشفاً لمراتبا خالصا وفتحاً من فتوحاته النقدية الكثيرة التي سبق إليها العديد من النقاد.

5مصطلح: الإجراء التوزيعي أو الدورة التوزيعية

1.5الدراسة اللغوية:

ورد في المعجم الوسيط من معاني (وزع) « وزّعه: قسّمه وفرّقه، وزّع الصحيفة أو المجلة أو الكتاب: فرقها على القراء بالبيع»³⁸ فالتوزيع هو تقسيم وتفريق وهو ما تتضمنه دلالة المصطلح عند مرتاض كما سيتضح من الدراسة المفهومية.

2.5 الدراسة المفاهيمية:

إن ما يسميه عبد الملك مرتاض الدورة التوزيعية، أو الإجراء التوزيعي، ذكره وفصل فيه في كتابه " نظرية القراءة" حيث ذكر في ثنايا الكتاب في جزءه الأخير تحديدا حوالي (191) مرة. وكان مرتاض قد أشار إلى مفهوم الدورة التوزيعية في كتب سابقة تحت مسمى اصطلاح آخر وهو المقاربة التركيبية التي تخضع إلى ما يسميه الدورة السيميائية.

والمقاربة التركيبية أو النسجية « هي التي تجعل من القراءة الأدبية للوحدة من الكلام نطلق من بداية الوحدة ثم تدور على كل عناصرها اللغوية ومن البداية إلى النهاية وتهض هذه المقاربة في استكشافاتها التحليلية على تراوج السمة اللغوية الأولى في الوحدة مع العنصر الثاني ثم مع الثالث ثم مع الرابع (٠٠) إلى نهاية الدورة السيميائية ثم يقع الانطلاق من بعد ذلك من العنصر اللغوي الثاني»³⁹

ولتبسيط مفهوم مرتاض نأخذ التمثيل أدناه للمقاربة التركيبية بحيث تنطلق كالتالي:

أ ← ب ← ج ← د ← هـ

ب ← ج ← د ← هـ

ج ← د ← هـ

د ← هـ.

يعود مرتاض في كتابه "نظرية القراءة" لاصطلاح جديد وهو الإجراء التوزيعي أو الدورة التوزيعية تحديدا عند تصديده لتحليل نص أبي القاسم الشابي " قلب الشاعر" . حيث بدأ بتقسيم النص إلى وحدات كلامية، حيث صنف النص إلى (04) أربع دورات توزيعية كبرى، تنفرع عنها دورات توزيعية صغرى.

الدورة التوزيعية: حسب تحليلات مرتاض هي حركة تبادلية تعاقبية بين عناصر لغوية اصطلاح عليها بالمشكلات. وتتكوّن كل دورة توزيعية كبرى من دورات توزيعية صغرى.

الدورة التوزيعية الصغرى: تتأسس من عنصر مشاكل موزّع يتحكم في توزيع بقية المشكلات ويعود هذا المشاكل نفسه ليخضع لتحكم مشاكل آخر في دورة توزيعية أخرى.

في تحليل مرتاض لنص " قلب الشاعر " يقيم الدورات التوزيعية على معيار محدد « بناء على تشاكلها المورفولوجي أو تماثلها النسجي ومن ذلك ننطلق إلى قراءة التشاكلات الأخرى القائمة على سيميائيات تضرب في أكثر من وجه»⁴⁰

يقسم مرتاض نص " قلب الشاعر " إلى أربع دورات توزيعية كبرى، كل دورة منها تتفرع إلى دورات توزيعية صغرى عديدة. فمثلا في الدورة التوزيعية الكبرى الأولى تكونت من (07) مشكلات هي: طيور؛ زهور؛ كهوف؛ فصول؛ غيوم؛ ثلوج؛ رعود.

هذه الدورة التوزيعية الكبرى تتفرع عنها دورات صغرى بحيث تتبادل المشكلات السبعة مواقعها في حركة تعاقبية، فمثلا الدورة الأولى يكون بها العنصر " زهور" مشاكلا موزّعا وفي الدورة الثانية يكون مشاكلا موزّعا. سنوضح هذا في التمثيل التالي:

المشاكل الموزّع	المشاكلات الموزّعة
زهور	كهوف فصول غيوم ثلوج رعود
كهوف	فصول غيوم ثلوج رعود زهور
فصول	غيوم ثلوج رعود زهور كهوف
غيوم	ثلوج رعود زهور كهوف فصول
ثلوج	رعود زهور كهوف فصول غيوم
رعود	زهور كهوف فصول غيوم ثلوج

بعد هذه التصنيفات لدورات التوزيعية السبعة وكذا الدورات التوزيعية الصغرى المتفرعة عنها، يباشر مرتاض تحليل السمات اللفظية التي اعتبرها مشكلات موزّعة أو موزّعة.

» طيور-زهور:

1. وأول التشاكل يكمن في الخصائص المورفولوجية.
2. وثانيها يتمثل في الخصائص الإيقاعية

وثالثها يتجسد في انتشارية المعنى في هذين الزوجين الطير يحلق ويطير ففي هذه السمة اللفظية معنى الانتشار والزهر تعبق وتضوع وليس فيها إلا معاني الانتشار»⁴¹

ويواصل مرتاض متابعة المشكلات الأخرى مثنى وثلاث ورباع.

إن هذا الإجراء التوزيعي جاء وليدا للقراءة التشاكلية ومحاولة مرتاض الحثيثة لتخصيب القراءة التشاكلية بإيجاده حلقة من العناصر المشكلة لتبادل المواقع فيما بينها لتسلط المشكلات على بعضها البعض الواحد تلو الآخر. ومما يؤكد أن الإجراء التوزيعي وليد القراءة التشاكلية قيامه على القضايا ذاتها التي يقوم عليها التشاكل: الانتشار؛ الانحصار؛ التماثل؛ التلازم؛ والتناقض.. إلخ

يشير يوسف وغليسي إلى أن هذا الإجراء التوزيعي أو الدورة التوزيعية الذي يكرّس له مرتاض كمنظريّة « لا تنسجم في تقديرنا مع روح النظرية (..) فلا أعتقد أن الدورة التوزيعية كذلك لقلة النصوص التي تؤيدها والتي يمكن أن تفسّر على ضوءها ولكنها إجراء تحليلي متفرد استطاع أن ينفذ بامتياز إلى " قلب الشاعر" »⁴²

إن اتهام وغليسي الإجراء التوزيعي بالقصور عن تمثيل تصور تنظيري لتفسير وقراءة النص الأدبي عموماً على اعتبار أن مرتاض استنبته في نص الشابي "قلب الشاعر" لماله من خصوصية أعانت وساعدت مرتاض على تمكين هذا الإجراء من هذا النص تحديداً وقد لا تجرى في غيره. هو اتهام لا أساس له من الصحة وذلك لتطبيق مرتاض هذا الإجراء على نصوص أخرى من بينها نص سورة "الرحمان" في كتابه "نظام الخطاب القرآني"، وأبيات للشاعر أبي الحسين النوري التي مطلعها:

ربَّ ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن.

تجدر الإشارة إلى أن الإجراء التوزيعي ساهم في تخصيب وإثراء مفهوم التشاكل من خلال رصد كل العلاقات التي قد تربط بين السمات المتشكلة وبالتالي توسيع وتطوير فعالية إجراء التشاكل.

كما أن الإجراء التوزيعي ساهم في ما ينشده مرتاض من انفتاحية القراءة وتعدديتها. ضف إلى ما سبق خدمة هذا الإجراء الدلالة من خلال إحاطة مرتاض واقتراجه من كل المشاكلات والرموز اللغوية على امتداد النص.

6مصطلح:المماثل (الأيقونة)

1.6الدراسة اللغوية:

يعرف الخطاب النقدي السيميائي انتشارا واسعا للمصطلح الأجنبي (ICONE) والمعرّب في أغلب النقود العربية السيميائية المعاصرة بالمصطلح الأيقونة. إلا أن الأمر بالنسبة لمرتاض يختلف كعادته بشخصنة المصطلحات حيث نجده يستقيم إلى مصطلح آخر بدلا عن "الأيقونة" ألا وهو "المماثل".

ويقول ابن فارس في مادة (مثل): « الميم والفاء واللام أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء بالشيء وهذا مثل هذا أي نظيره »⁴³ فالدلالة اللغوية تشير الى ارتباط أمرين وتناظرهما أي أن كل منهما متعلق بالآخر مستحضر له بمجرد ذكره وهو الأمر الذي يقترب منه مفهوم السيميائيين الغرب لمصطلح الأيقونة. والجدير بالذكر أن المصطلح الأجنبي (icone) مأخوذ من «أصل لاتيني (ikon) ظهر عام 1938 متجليا في رسومات زيتية دينية منجزة على ألواح خشبية في الكنائس الشرقية التي كانت تملأ الجدران بأيقونات، وبصور رجال نبلاء أكبر من الحجم الطبيعي (..) هي ألفاظ أكثر استعمالا في الكنيسة الإغريقية في روسيا وتطلق على تلك الصور التي تمثل مريم والقديسين»⁴⁴.

2.6 الدراسة المفهومية:

كما أشرنا سالفاً فبعد الملك مرتاض يقابل هذا المصطلح الأجنبي (ICONE) بمصطلح المماثل كمصطلح شخصي يخص مرتاض فقط دون غيره، ويثني مرتاض على نفسه أن كان أول من سبق إلى هذا الاصطلاح « فإننا ربما نكون أول من اصطنع هذا المصطلح السيميائي على هذه الصورة مجريته في الصياغة العربية وذلك قبل أن نهتدي السبيل إلى إيجاد بديل عربي سليم يعادل هذا المصطلح الذي نقترح له مصطلح "المماثل" كل مماثل أيقونة»⁴⁵

يعرّف مرتاض مصطلح المماثل بأنه « الشيء الذي يماثل الآخر في العالم الخارجي أي الصورة الحاضرة المطابقة للصورة الغائبة أو السمة الحاضرة الدالة على سمة غائبة»⁴⁶

ومن القراءات المماثلة في المدونة تحليله للوحة الشعرية الأولى في نص "شناشيل ابنة الجليبي" للسياح « ويمكن أن نقرا اللوحة الشعرية الأولى من هذا النص قراءة بإجراء المماثل فنلاحظ أنه يتألف من لوحة مماثلة معنوية (....) و"أذكر" إن الذكرى مماثل لزمان ممتد من الحاضر إلى الماضي امتدادا وهميا، ولكنه امتداد وارد كما أن الذكرى ترد ممثلا لشحنة زمنية تسري في الذاكرة (...) فاستحضر هذه الذكريات عن طريق مقوم "أذكر" هو صورة مماثلة إدراكية لشيء كان قد وقع بنفسه قديما»⁴⁷

من خلال مفهوم مرتاض لإجراء المماثل وتطبيقه في تحليل السمات اللفظية نلح رغبتة في التوسع في تطبيق المماثل، ورصده في السمات والمقومات المعنوية.

إن استحداث السيميائيين الغرب لإجراء الأيقونة، أمر كان من الضرورة بمكان وهذا لاستحضار شيء بعيد أو غائب أو متعذر أو خارجي بما يطابقه رؤية وذوقا وشما وسمعا ولمسا»⁴⁸

ويختلف مرتاض عن النقاد السيميائيين الغرب في عدم وقوفه بإجراء المماثل عند هذا الحد، وتأكيد على ضرورة الذهاب به بعيدا في تحليل النص الأدبي « بحيث تغتدي قطرة الدم العالقة بالأرض ممثلا لجرح في جسد أو رعا في أنف»⁴⁹

إن مرتاض يرى في الإجراء المماثل مفهومًا قادرًا على التفاعل وبالتالي التخصيب والإثراء فلا يبقى المماثل مجرد إجراء قابل للخضوع فقط ولكن « شيء مقتدر على التفاعل والتخاصب وإذن على التماثل عبر الخطاب الأدبي بعامته والخطاب العشري بخاصة مع العناصر السيميائية الأخرى الفاعلة»⁵⁰

. مصطلح: القرينة (indice)

1.7 الدراسة اللغوية:

يذكر ابن فارس في مقاييسه في مادة (قرن): « القاف والراء والنون أصلان صحيحان، أحدهما يدل على جمع شيء إلى شيء »⁵¹

2.7 الدراسة المفهومية:

يعرّف شارل ساندرس بيرس القرينة (indice) بأنها « علامة تكون فيها العلاقة بين المصوّرة والموضوع علاقة سببية منطقية »⁵² لا يختلف عبد الملك مرتاض مع مذهب مرتاض في مفهومه لإجراء القرينة، وقد حلل نص "شناشيل ابنة الجلبي من منظور قريني في كل اللوحات الشعرية التي قسم وفقها مرتاض هذا النص. وحتى في قراءته لنصوص أخرى فهو لا بد وأن يخضع النص إلى القراءة والتحليل لإجراء القرينة. يقرأ مرتاض قول السياب (يضحك أو يغني) فيقول عن القرينة فيه: « لقد تطورت الدلالة القرينية فانتقلت من مجرد الابتسام في المقطع الأول إلى الضحك بل إلى الغناء (...) علينا أن نلاحظ أن الضحك في مألوف العادة أي في تقصي سيرة العقلاء والنهباء من الناس لا يكون إلا بسبب وجيه وفي كل الأطوار لا يكون مثل هذا السبب إلا سعيدا »⁵³

ومما لاحظناه في قراءات مرتاض من خلال أعماله لإجراءي المماثل والقرينة، أنه فتح الباب أمام قراءة السمات كقارئ تارة وكماثلات تارة أخرى ومن ذلك مثلاً تحليله للسمة اللفظية (النهر) من نص "شناشيل ابنة الجلبي" « والنهر منقر من الأرض يجري فيه الماء والنهر من

حيث هو ماء لعله ماء آخر يمكن أن ينصرف أساسا إلى حقل القرينة، كما يجوز أن يؤول تأويلا مماثليا وفي الحالين الاثنتين يتخذ له طبيعة بصرية وسمعية جميعا»⁵⁴

كما لاحظنا فمرتاض لم يبتعد عن المفهوم البيروني للقرينة، لكنه يؤكد كعادته تناوله بشكل موسع لمفهوم القرينة « فقد توسعنا في مفهومي القرينة والمماثل معا توسعة لم تخطر بخلد بيرس الذي لم يكن أديبا محلا للخطاب الشعري»⁵⁵ وما يريده مرتاض من توسيع لم يشر له لا بيرس ولا غريماش ولا حتى تلاميذ هذا الأخير، ما يسميه مرتاض بتركيبية القرينة، أي أن القرينة « تتركب من سيميائيات بصرية وسمعية ولمسية وذوقية وشمية في آن واحد»⁵⁶

ضف إلى هذا يسعى مرتاض كما فعل مع إجراء المماثل من خلال محاولته إثراء وتخصيبه، عمد مرتاض إلى ما يصطلح عليه هو التقارن، أي تفاعل القرائن مما يضفي ثراء على تحليل النص الأدبي من وجهة نظره.

وبالنسبة للخطاب النقدي العربي فقد لاقى مصطلح " القرينة " مقابلات عديدة ومختلفة منها⁵⁷:

الشاهد عند عادل الفاخوري، والمقياس عند سعيد علوش، والأمانة عند عبد الحميد بورايو، والعلامة المؤشرة عند بسام بركة، والإشارة عند عبد العزيز حمودة، والدليل عند لطيف زيتوني، وصاحبي " دليل الناقد الأدبي"، والعلامة عند عبد الله الغدامي وحמיד لمحمداني، المؤشر عند المرزوقي وجميل شاكر إلخ.

8. مصطلح التأويل

1.8 الدراسة اللغوية:

يورد ابن فارس : « ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبته وما يؤول إليه وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ (سورة الأعراف الآية 53)، يقول: ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم »⁵⁸

2.8 الدراسة المفهومية:

يرى مرتاض أن التأويلية (Hermeneutique) «شبكة معقدة من الإجراءات، وجهاز متطور من القنوات والأدوات التي بواسطتها أو بواسطته نستطيع التحكم في نظام التلقي بحيث لا نستعمل النص المقروء ولكنّا نؤوله تأويلاً... نحاول أن نستخلص من عناصره بناء على معالم سياقية ونسقية أيضاً، شبكة من المعطيات والقيم الدلالية التي نخوّل لنا من حيث نحن قراء محترفون أن نقارب النص المقروء انطلاقاً من إجراء منهجي صارم»⁵⁹ يمكننا أن نستشف من تعريف مرتاض للتأويل أنه جملة من الأدوات التي بواسطتها يمكن الوقوف على أهم المعطيات الفنية والجمالية والدلالية لأي نص أدبي.

وعلى حسب قراءتنا للمدونة وفهمنا لرؤية مرتاض وقراءته للنص الأدبي فإن الأدوات أو الإجراءات التي بفضلها يتم تأويل النص الأدبي هي كل الإجراءات السابقة (التشاكل، التباين، الانتشار، الانحصار، المماثل، القرينة... إلخ) والتي حاولنا تسليط الضوء على مفهوم مرتاض لها فجميعها تعتبر في نظر مرتاض «الجهاز التقني الذي سخرناه لتأويل الألوان والمرئيات والملموسات والمذوقات (..) فتمنح النص أبعاداً دلالية خصبة»⁶⁰

إنه من الضروري الإشارة إلى شقين أفاد منهما مرتاض في مفهوم التأويل وهما خلفيتا هذا الإجراء: -الغربية و-العربية.

-الخلفية الغربية: يرى مرتاض أن التأويلية الغربية ترفض ربط الأدب بالسياق حالها كحال السيميائية والبنوية وغيرها من التيارات الحديثة، وتحاول جاهدة تجاوز النقد لكن التأويلية أدواتها لم تكن من الدقة والصرامة بمكان فاتجهت إلى النصوص التي تتسم بالعمق والمتحمّسة للدين والوجود والمعرفة. ويصنف مرتاض هذه التأويلية التي يصفها بالمعاصرة إلى تأويليتين⁶¹:

-تأويلية كلاسيكية: تنصرف إلى تأويل المعنى بالقياس إلى النصوص الدينية أو النصوص الفلسفية.

-تأويلية جديدة: تتمحور للأعمال الأدبية غير الكبيرة حيث امتد التأويل إلى قراءة أي نص بغض النظر عن بساطته.

يلوم مرتاض تعريفات الفلاسفة الذين اهتموا بالتأويل من أمثال غادامير وهسرل الذين استمدوها من خلفياتهم الفلسفية، ويثن مرتاض خروج التأويلية من اقتصارها على الاهتمام بالأعمال الأدبية العظيمة واكتساحها كل أنواع الابداع « يجب أن يمتد وقد امتد بالفعل إلى بعض النصوص الصحفية الرصينة، وإلى الاتفاقات الدولية المعقدة »⁶²

يرر مرتاض انعدام صفة الصرامة والدقة في إجراءات تأويل وجنوحها نحو التوسع أو مجيئها فضفاضة غير محددة إلى تعدد طرائق الكتابة وأشكالها له أثر مباشر في تعدد أشكال القراءة التأويلية وعدم منهجتها في أدوات صارمة، وتبرير مرتاض هذا جاء مطابقاً لتبرير هسرل وبول ريكور من قبله بأن « المسألة لدينا أن كل إجراء للقراءة الأدبية لا يستطيع إلا أن يتعدد (..) وما ذلك إلا لتعدد أشكال الكتابة داخل الجنس الأدبي الواحد (...) وإن تعددية أشكال المؤول لا يمكن أن تظل محايدة وإذن فقد تنشأ عنها تعددية أشكال التأويل »⁶³

-الخلفية العربية: كما سبق ولا حظنا في ما سبق من هذه الدراسة المصطلحية، يسعى مرتاض دوماً لإعطاء كل إجراء أو مصطلح نقدي غربي خلفية تراثية عربية.

فيؤكد مرتاض على أن العرب في قرون سابقة مارسوا التأويل في شقين:

أ/تأويل النص الديني ومحاولة فهمه وتفسيره ممثلة في جهود كبار المفسرين وعلماء الأصول المسلمين وبراعتهم في تأويل النصوص الشريفة.

ب/تأويل النص الأدبي: ممثلة في تلك القراءات النقدية التحليلية التي تناولت نصوص شعرية كثيرة من أشهرها شعر المتنبي، وأبي تمام وقبلهما المعلقات السبع أو العشر، وتراثنا النقدي يروي العديد من المواقف التي تشير إلى الاهتمام بإشكالية التلقي والتأويل، كبيت المتنبي المشهور:

أنا ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاهاً ويختصم

وما ورد عن أبي تمام عندما سئل (لم لا تقول من الشعر ما يعرف؟ فقال : وأنت لم لا تعرف من الشعر ما يقال)

فالملتقي العربي آنذاك تفتّن إلى أنه كان بين خيارين: إما أن يقرأ ويحاول البحث عن قصدية المؤلف، وإما أن يقرأ باستقلالية عن قصد المؤلف وبالتالي يقرأ بالتأويل.

إن رؤية مرتاض لمصطلح التأويل لا تختلف كثيرا عن رؤية النقاد العرب المعاصرين بل نجد اتفاقا واضحا بين مفهوم مرتاض ومفهوم سعيد علوش للتأويل الذي يرى أنه « جملة من المعارف والتقنيات التي تسمح باستنطاق الرموز واكتشاف معانيها »⁶⁴

الهوامش:

¹ أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، ط1، 2008، ص: 511، 512.

² عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص: 31.

³ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، عبد الملك مرتاض، ص: 19.

⁴ نظرية القراءة، ص: 245.

⁵ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 57.

⁶ المصدر نفسه، ص: 57.

⁷ نظرية القراءة، عبد الملك مرتاض، ص: 245.

⁸ المصدر نفسه، ص: 248.

⁹ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 50.

¹⁰ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 51.

¹¹ نظرية القراءة، ص: 355.

¹² المصدر نفسه، ص: 364.

¹³ محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2005، ص: 20
نقلا عن :

A.J GREIMAS et J.courtese semiotique dictionnaire raisonne de la theorie du langage.
Paris hachette 1980

¹⁴ نظرية القراءة، ص: 249.

¹⁵ Francois rasiertier : essais de semiotique poetique 1972. P :106

¹⁶ نظرية القراءة، ص: 404.

- ¹⁷ نظرية القراءة، ص: 414.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص: 248.
- ¹⁹ مقاييس اللغة، باب (بين).
- ²⁰ نظرية القراءة، ص: 126.
- ²¹ المصدر نفسه، ص: 126.
- ²² نظرية القراءة، ص: 136.
- ²³ المصدر نفسه، ص: 137.
- ²⁴ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 84/83.
- ²⁵ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 51.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص: 105.
- ²⁷ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 26.
- ²⁸ محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص: 71.
- ²⁹ نظرية القراءة، ص: 136.
- ³⁰ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (نثر).
- ³¹ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 15.
- ³² نظرية القراءة، ص: 313/312.
- ³³ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 46.
- ³⁴ نظرية القراءة، ص: 250.
- ³⁵ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (حصر).
- ³⁶ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 98.
- ³⁷ نظرية القراءة، ص: 251.
- ³⁸ المعجم الوسيط، مادة وزع.
- ³⁹ نظرية القراءة، ص: 251.
- ⁴⁰ نظرية القراءة، ص: 342.
- ⁴¹ نظرية القراءة، ص: 356.
- ⁴² يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، ص: 266.
- ⁴³ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (مثل).

⁴⁴ مولاي علي بوخاتم، مصطلحات النقد العربي السيميائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص: 200،

⁴⁵ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 30.

⁴⁶ نظرية القراءة، ص: 139.

⁴⁷ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 150.

⁴⁸ نظرية القراءة، ص: 139.

⁴⁹ نظرية القراءة، ص: 139.

⁵⁰ نظرية القراءة، ص: 140.

⁵¹ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (قرن).

⁵² Theorie et pratique d signe introduction a la semiotique de C.S PIERCE ; Gerrard delladalle .payot.paris 1979.p :75.76

⁵³ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 154.

⁵⁴ المصدر نفسه، ص: 161.

⁵⁵ نظرية القراءة، ص: 144.

⁵⁶ المصدر نفسه، ص: 144.

⁵⁷ يوسف وغيلسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي الجديد، ص: 245.

⁵⁸ مقاييس اللغة، مادة (أول).

⁵⁹ نظرية القراءة، ص: 180.

⁶⁰ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 42.

⁶¹ ينظر نظرية القراءة، ص: 186.

⁶² المصدر السابق، ص: 187.

⁶³ نظرية القراءة، ص: 188.

⁶⁴ سعيد علوش، هيرمينيوتيك النثر الأدبي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص: 16.

